تفريغ المجلس (٠١٨)

"تتمة الباب الخامس - "ذكر بعض رؤساء البربر (مطوس / نارفاس / غولة / أصالساس / قولوسا / لكومسيس / صيفاقس / فرمينة / ماصينيسا)[١].

[٦ - ذكر بعض رؤساء البربر]

لم تظهر بالوطن البربري دول عظام وملوك فخام إلا عندما أخذ الطمع الأشعبي يدفع رومة لامتلاك وطنهم، واصطدمت بقرطاجنة، فحينما دب الهرم في دولة قرطاجنة ونخرت أعظمها من حروب اليونان والرومان أراد البربر أن يحفظوا استقلالهم فكان منهم ملوك سنرى أخبارهم فيما يلي هذا الفصل[٢].

---

[١] إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، وم يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك لهن وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ﷺ.

أما بعد: فإن خير الكلام كلام الله تعالى، وخير الهدى هدى نبينا محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

توقفنا عند قول المؤلف (**ذكر بعض رؤساء البربر**) يعني الذين كانوا في عهد قرطاجنة، في هذا الباب الباب الخامس في ذكر البربر على عهد قرطاجنة وجمهورية روما.

[٢] يعني الدول في هذا البلد، قديما زمن البربر، لم تظهر إلا لما صارت روما تطمع في كل ما هو أمامه وتراه، كما قال المؤلف (**الطمع الأشعبي**) نسبة إلى أشعب، أشعب هذا هو أبو العلاء، يكنى بأبي العلاء وقيل كنيته أبو إسحاق، أشعب ابن جُبير، يعرف بابن أم حميدة، يلقب بالطماع، كثير الطمع ما يرى شيئا إلا وطمع فيه، قيل له: ما بلغ طمعك؟ قال: بلغ طمعي أني كلما سمعت بامرأة سوف تزف كنست بيتي لعلهم يهدونها إلي، قال: ما حضرت جنازة فرأيت أحدا يميل برأسه إلى صاحبه إلا ظننت أن الميت قد أوصى بي، شديد الطمع، فكان -كما قال الذهبي-: صاحب مزاح وتطفل، ولكن كُذب عليه، يذكرون فيه قصصا وأخبارا وأشعارا، حتى يضرب به المثل في الطمع، قال بعضهم:

واستغناء البربر أولا عن تأسيس دولة ثم التجاؤهم ثانيا يظهر سره فيما أجاب به النعمان بن المنذر كسرى وقد عاب أمامه العرب بعيوب منها عدم انقيادهم لرجل يسوسهم[٣]، وهذا جوابه: " وأما تركهم الانقياد لرجل يسوسهم ويجمعهم فإنما يفعل ذلك من يفعله من الامم إذا آنست من نفسها ضعفا وتخوفت نهوض عدوها إليها بالزحف"[٤].

حقا حفظ البربر استقلالهم بتأسيس تلك الممالك مدة، وقد كانوا ينجحون في إقصاء عدوهم لولا انقسامهم على رؤساء وأمراء كل يحارب الآخر، ولا أضر على الأمم من الحروب الداخلية والتهالك على الرياسة[٥].

فجارهم مثلما قد علمت * وحقك من أشعب أطمع**

وهو متقدم قيل ولد سنة ٩هـولم يلق النبي ﷺ وقيل هو مولى لعثمان بن عفان رضي الله عنه وفاته سنة ١٥٤هـوقد روى بعض الأحاديث وروي عنه، وكان يروي عن عكرمة، قال: سمعت عكرمة قال عن ابن عباس ﭫ قال: لله على عبده نعمتان، ثم سكت، قيل له ما هما؟ قال: نسي إحداهما عكرمة، ونسيت الأخرى، رحمه الله وقيل هو خال الأصمعي، قال الأصمعي **(عبث به الصبيان مرة، فقال: ويحكم اذهبوا فإن فلانا يوزع تمرا، فعدوا، فلما رآهم عدوا ظنوا أنه حق، فعدا معهم وقال: لعله حق)**، فيضرب به المثل في الطمع.

روما وقع لها ذلك، يعني طمع أشعب، فسماه المؤلف: الطمع الأشعبي، بمعنى يطمع في كل شيء له أو ليس له، كما قيل في طمع أشعب، يحصل ما ليس من صيده، ويحصد مالم يكن من زرعه، فهنا لما كثرت مطامع رومة، وجدت من يتصدى لها، اصطدمت بقرطاجنة ودب الهرم في دولة قرطاجنة وضعفت من كثرة الحروب مع اليونان والرومان، فظهر هنا رؤساء وملوك من البربر.

[٣] النعمان بن المنذر كان مع كسرى فعاب عليه أن العرب لا يجتمعون على رجل واحد يقودهم ويسوسهم.

[٤] الأمم تفعل هذا إذا كانت ضعيفة فلا تجعل على رأسها أحدا يسوسها، وخشية أن يأتيها العدو، فإنها إذا كانت من غير من يقوم عليهم كلّ يدافع عن نفسه، لكن مع ضعفها يتسلط عليهم العدو، هذا المقصود.

[٥] الدولة أو الأمة أو الجماعة إذا صار بينها حروب، وتناحر، وتنافس على الرئاسة فذلك يجعلها في المهالك والمهاوي، يعني تضعف، ولهذا الدول القوية إذا أرادت أن تتحكم في غيرها تحاول أن تثير الفتن في الدولة الواحدة، وتثير النعرات والعصبيات، والطائفية، والجماعات فتصير بينهم حروب وتلاحم، فينتهي إلى الانقسام، ونشوء دول، والدولة أول ما تنشأ تكون في ضعف، فيسهل على تلك الدول القوية أن تأخذ وتفترس تلك الدول الصغيرة الضعيفة ولو أن تتحكم فيها وفي خيراتها، كما قال المؤلف **(ولا أضر على الأمم من الحروب الداخلية)** التي تكون في البلد **(والتهالك**

قبل ظهور الملوك العظام كان لعشائر البربر رؤساء هم نواة الملك الذي عظم من بعدهم، ونحن نذكر من أولئك الرؤساء ما اهتدينا إلى خبره، ثم نقفي بذكر الملوك العظام الذين قلما تجود بهم الأيام[6].

[١ - مطوس].

كان زعيم العساكر المرتزقة التي ثارت على قرطاجنة سنة ٢٣٨ (ق. م)[7].

وذلك أن قرطاجنة كان لها من العساكر المرتزقة عشرون ألفا عجزت عن أداء أرزاقها بعد خروجها من الحرب البونيقية الأولى على ذلك الوجه المضر بها، فلم تعذرها تلك العساكر وثارت مطالبة بأرزاقها، فمنحت كل واحد دينارا فلم يرضهم ذلك. فوجهت لهم ضابطا يدعى حنون فعجز عن مقاومتهم، ثم عينت لكسر شوكتهم أملقار القائد العظيم.

[٢ - نارفاس].

كان ملكا بمصيليا، ولما اشتدت ثورة العساكر المرتزقة وحاصروا عدة مدت منها بنزرت[8] وعين أملقار لحربهم رأى أنه لا يقوى عليهم إلا بمساعدة نارفاس، فاستماله ووعده بابنته، فأعانه وتمكن بذلك أملقار من محاربة الثوار، أخمد أولا ثورتهم فجددوها وبلغوا أن حاصروا قرطاجنة[9]. فتمكن لأملقار

على الرئاسة) التضارب على من يؤول إليه الأمر، فيقع في داخل الدولة الواحدة قتال وتناحر، ومن الذي يفرح وينجح ويربح؟ الذي يتفرج من بعد.

[6] يعني قبل أن صار الملك العظيم في البربر، كانت هناك دويلات، وبعض الملوك، وبعد ذلك جاء ملوك عظام، وسيذكر بعض الذين كانوا في العشائر يقودونها، ثم بعد ذلك صار الملوك العظام.

[7] يعني قرطاجنة أصابها الضعف، فطالب الجند المرتزقة الذين أتت بهم المدينة من البربر، طالبوا بمعاشهم، وأرزاقهم ولم يكن لها الدخل الكافي، فأعطتهم لكن لم يكفهم فثاروا، فجعلت من يوقفهم.

[8] تونس.

[9] وعده بابنته يعني قال له: سأزوجك بابنتي، هكذا إلى اليوم المطامع، يقوم هذا فيدافع عن بلد فلان ويقول: ماذا عندي؟ يقول: أعطيك بلدة كذا، أو ستتملك كذا، أو قسطا من مال، أو جاها، أو تزويج بامرأة، او غير ذلك

أن يدافع طائفة منهم حتى حصرها بين جبلين، ولما ضعفت استأمنت له لكنه استأصلها عن آخرها، وبقي مطوس بمن معه محاصرا لقرطاجنة، فضاعف القرطاجنيون قوتهم حتى غلبوا مطوس وجنده[10].

[٣ - غولة].

هو ابن نارفاس خلف أباه على ملك مصيليا، وكانت عاصمته قرطة، فجري على سياسة والده من مصادقة قرطاجنة إلى أن توفي سنة (٢٠٦) ق. م.

[٤ - اصالساس].

[10] وهذا يقع كما ذكرت حتى الآن، التاريخ يعيد نفسه، القاعدة التي ذكرها أهل التاريخ لها حظ وافر من الصواب، ولهذا الذين يؤسسون الدول من كان يملك الذكاء والفطنة يتعلم من مقربي أهل التاريخ، لأن المؤرخين لهم دراية بالحوادث السابقة، وقد سبق في أول الكتاب، ذكرنا مقدمة في التاريخ، وقلنا إن حقيقة التاريخ هو ذكر حوادث، وأزمنة ممكنة مع ذكر العبرة كما قال تعالى {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً}آل عمران١٣، هذه العبر يستفيدها المؤرخون ويفيدون بها أهل الحروب وتأسيس الدول، فيستفيدون من النتائج السابقة، ويكون محتاطا لكل ما يمكن أن يقع.

هو ابن نارفاس أيضا[١١]، خلف أخاه على ملكه في عاصمته، وكان معه مصينيسا بصفة أمير، وبعد قليل توفي وترك ولدين هما: قولوسا، لكومسيس[١٢].

[٥ - قولوسا]

كان هو الأكبر سنا فانتصب مكان أبيه حسب نظامهم في إرث العرش، وثار عليه ثائر من الاسرة المالكة. لكنه - حسب القانون الوراثي- لاحق له في الولاية، ويدعى هذا الثائر مزوطيل، نشبت الحرب بين الملك والثائر وجموعهما. وانتهت بهلاك قولوسا.

---

[١١] هذه أسماء قديمة في هذا البلد، وبعضهم لا يزال يسمي ببعض هذه الأسماء القديمة التي كانت في عهد وثنية وجاهلية جهلاء، المسلم إذا دخل الإسلام وصار يدين بدين الإسلام، يقيم قواعده وأسسه، ويحتكم إلى أصوله، وهكذا يكون المسلم، وليس من الإسلام في شيء أن يعود إلى النعرات الطائفية، والعصبيات القديمة، وليس بمعنى أن ينكر أصله وفصله ونسبه الذي يثبت له، هذا ليس فيه تعارض، إنسان يقول مثلا: إن أصله بربري، وإذا كان يربط نسبه حقيقة وإلا بعضهم، يحكي ويقلد غيره، وليس له شواهد وأدلة على ما يقول، فعلى فرض ذلك فما دام يدين بدين الإسلام فيتسمى ويسمي بأسماء الإسلام، لا يتسمى بأسماء كانت في العهد الجاهلي والوثنية الظلماء كإسم ماصيليسا، ويوغرطا، وفرعون، وغولة وأصالساس، وقلوسة ..الخ هذه كانت قبل الإسلام، ولما جاء الإسلام جاء بالشريعة الغراء، والعرب عندما دخلوا إلى الإسلام انتهوا عن العصبية، والجاهلية، والنبي ﷺ قال (دعوها فإنها منتنة) [أخرجه البخاري (٤٩٠٥) واللفظ له، ومسلم (٢٥٨٤)] وقال (أبدعوة الجاهلية وأنا بين أظهركم) صفية بنت حيي اليهودية أسلمت، في عهد عمر وشى بعضهم إليه، وقال: إنها تصل اليهود، وتعظم يوم السبت، فأرسل إليها عمر بما كان يصلها به من الوصل كما كان يصل زوجات النبي ﷺ، وأرسل يسألها قالت (**أما صلتهم فإن لي بهم رحم أصلها، وأما السبت فإني ما عظمت شيئا يهوديا منذ أدخل الله عليا الإسلام**)، وهكذا كان يفعل الإنسان إذا أسلم ترك الجاهلية الظلماء الجهلاء، وترك العصبيات والجاهليات، وهذا لا يعني أنه ينكر نسبه، فنسبهم لا يزال ثابتا، فالعرب تقول: فلان بن فلان بن عبد نوفل، ابن عبد ياليل، ابن عبد العزى، ابن عبد شمس.

فالإسلام لابد على الإنسان أن يفهمه، لا يقطعك عن نسبك ولكن له أحكامه، يقولون الرجوع إلى الأصول ..الخ هذا غير صحيح، هذا تلاعب وتضارب.

[١٢] كانوا يتوارثون، الأب يعطيها للابن، وبعده إلى أخيه وأبنائه.

[٦ - لكومسيس]

بعد أن فاز مزوطيل تنازل عن الملك لمن له الحق فيه وهو لكومسيس، وانتصب وكيلا عنه وكافلا له، فكان تنازله اسميا، وفي الواقع هو الملك[١٣].

كان من الواجب على قرطاجنة ان تتداخل في هذه الثورة لفائدة من له الحق في الولاية، لكنها وقفت موقف المتفرج، وكان مصينيسا ابن غولة بالأندلس مع القرطاجنيين في حرب الرومان، فلما بلغه خبر مزوطيل واعراض قرطاجنة عن ثورته خرج من الأندلس مغاضبا للقرطاجنيين ومحالفا للرومان[١٤]، قصد مصيليا ليطرد من عرشها مزوطيل ويتسلم هو مقاليد الحكم، فمر بمصيصيليا مملكة عدوه صيفاقس في شرذمة من الجند، وبلغه أن مزوطيل ذاهب لزيارة صيفاقس، فكمن له في بعض السبل وانقض عليه وعلى من معه، وتقاتلا حينا وحكمت المعركة لمصينيسا، ففر مزوطيل بمن بقي من جنده، واستقر مصينيسا بعرش آبائه ملوك مصيليا.

[٧ - صيفاقس (٢٣٠ - ٢٠٢) ق.م]

صيفاقس من أعظم ملوك البربر، كان ملكا على مصيصيليا، وعاصمته صيغة، كان هذا الملك معاصرا لغولة. ومن أخلاق ملوك البربر التنافس والتخاذل والاستعانة بالأجنبي، ولولا ذلك لكان الوطن البربري أمنع على مريد اغتصابه من عقاب الجو[١٥].

---

[١٣] الذي يملك لكومسيس، رسما واسما، لكن الملك الحق هو مزوطيل، هذا عندنا موجود من القديم، يضعون في الواجهة ملكا، والذي يدير الشؤون حقا فلان من الناس يكون له قوة ومكنة، هذا لم يزل من القديم في عهد الجاهلية وحتى بعد ذلك وفي بعض الدول الإسلامية كأواسط الدولة العباسية، أو بداية أواخرها.

[١٤] يعني نظام الملك عند البربر معروف، يأتي ابنه لا غيره، فيقول: لماذا قرطاجنة لم تدعّم الوارث الحقيقي للملك، وبقيت متفرجة لبعضهم يقتل بعضا، يعني غضب من ذلك.

كان في الأندلس يحارب الرومان مع القرطاجنيين، لما سمع بما وقع انقلب، يعني الأمر مصالح.

[١٥] الوطن البربري صعب بمناخه وجغرافيته وجنده الأقوياء لولا أن يكون بينهم التناحر، والتنافس على الرياسة، التخانق فيما بينهم، الاستعانة بالأجنبي على بعضهم.

ولهذا السبب كان هذان الملكان مختلفين: غولة حليف للقرطاجنبين، وصيفاقس حليف للرومان[16].

وفي سنة (٢١٣) أرسل اليه الرومان ضباطا يعلمون جنوده، وسار صيفاقس ضد غولة، فوقعت الحرب بينهما. وكان رئيس جيش غولة هو ابنه مصينيسا، وعمره إذ ذاك سبع عشرة سنة، فانتصر مصينيسا وأخرج صيفاقس من عاصمته صيغة، فذهب إلى موريطانيا الغربية وجمع من أهلها جيشا ساقه لحرب مصينيسا، فعادت عليه الكرة أيضا، وذلك سنة (٢١٢).

بعد انتصار مصينيسا صارت مملكة غولة تمتد إلى ملوشات غربا، فكان بذلك ملكا على مصيليا ومصيصيليا، وكان صدر بعل القرطاجني بالأندلس فجاء مددا لمصينيسا على صيفاقس، وبعد الانتصار عاد اليها بجيوش كثيرة تحت قيادة مصينيسا[17].

ولما توفي غولة واعقبته ثورة مزوطيل ولم تتداخل فيها قرطاجنة غضب مصينيسا وخالف قرطاجنة وحالف رومة.

كانت قرطاجنة تخطب ود صيفاقس[18] وهو معرض عنها، ولعل تغافلها عن ثورة مزوطيل التي فيها فائدة صيفاقس كان بقصد استمالته، ولكنها خسرت بهذه السياسة صداقة مصينيسا[19]، وإذ كان مصينيسا مع الرومان خالفهم القرطاجنيون إلى استمالة صيفاقس، فكانت عليهم هذه المرة سهلة. وكان لصدر بعل بنت شهيرة تدعى "صفو نيسب" وعد بها مصينيسا فلما أيس من مناصرته عدل عن مصاهرته وزوجها من صيفاقس عدو مصينيسا[20].

---

[16] فهذا يستعين بهؤلاء على أولئك، عوض أن يتعاونوا، لهذا ينبغي على الإنسان أن يستفيد من هذا، لا نستعين بمن هو خارج بلدنا على أنفسنا، بل نتصالح فيما بيننا، وكلّ منا يقيم الآخر ويصوبه.

[17] هذه من البلدان القديمة من الأندلس.

[18] يعني تتودد له.

[19] كانت تقصد أنه سيأتي من الأندلس وتستفيد منه، لكن هو غضب لأنها لم تتدخل.

[20] القضية كلها حول النساء والله المستعان، ولا يزال الأمر كذلك، تطلع دولة بامرأة، وتنزل بامرأة، أمرهن صعب جدا. حبذا لو يظهر مؤرخ يكتب لنا في العلاقة بين تاريخ الدول والنساء.

اتخذ القائد القرطاجني هذه الوسيلة شفيعا له في صداقة صيفاقس فنجح، وكيف لا ينجح بمثل هذه الشفاعة التي يقول فيها الفرزدق:

لَيْسَ الشَّفِيعُ الَّذِي يَأْتِيكَ مُتَّزِراً ... مِثْلَ الشَّفِيعِ الَّذِي يَأْتِيكَ عُرْيَانَا

صدق صيفاقس في صداقته لقرطاجنة، وابتدأ عمله بمحاربة مصينيسا الذي اتنصب بقرطة ملكا على مصيليا، فانتصر عليه وانتزع منه أغلب مملكته[٢١]، ففر مصينيسا واعتصم ببعض الجبال، وذلك سنة (٢٠٥) ومن معتصمه صار يغير على تراب قرطاجنة فأقلقها، وإذ ذاك رغبت من صيفاقس أن ينهي قضية مصينيسا إنهاء حاسما، فلباها وأرسل جيشا تحت قيادة بوكار، فشد الخناق على مصينيسا وفتك برجاله ولحقته هو جراحات عميقة أعجزته عن أي مقاومة، فرمى بنفسه في واد ونجا إلى الضفة الأخرى، وذلك ناحية قليبية من التراب التونسي.

---

[٢١] كون الملك أو الأمير يتزوج امرأة، قد يكون ذلك من الطرق والسياسات التي تنفع والتي لها مآل، وفوائد، قد لا يكون القصد هو حاجة الرجل للمرأة فقط، لكن قد يكون لهذه المصاهرة فوائد عظيمة، لكن بالنظر الشرعي، وهذا الذي كان يفعله ﷺ تزوج بجويرية بنت الحارث من بني المصطلق المليسيعية، فلما تزوجها وكانوا قد سبوا نساء المصطلق والمليسيع، فلما رأوا النبي ﷺ تزوجها قالوا: أصهار رسول الله ﷺ فأطلقوا سراحهم، قالوا (**ما رأينا امرأة ذات فضل عظيم على قومها مثل جويرية**) [أخرجه أبو داود (٣٩٣١) واللفظ له، وأحمد (٢٦٣٦٥)] لأنه لما تزوجها ﷺ ترك الصحابة هؤلاء الأسرى فهم أحرار، وكذلك كان النبي ﷺ يأمر جنده بذلك، لما أرسل عبد الرحمن بن عوف في سرية دومة جندل، فأمرهم بثلاث: يدعوهم إلى الإسلام، وإلا الجزية، أو القتال، قال (فإذا أسلموا فتزوج ابنة أميرهم -أو ملكهم-) فكان الأمر كذلك، فلما أسلموا تزوج ابنة ملكهم وهي تماضر بنت أصبغ أو أصيبيغ ، ورزق منها الولد المشهور بأبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، وهو راو من رواة الحديث، من اثنى عشرة راو الذين يدور عليهم الحديث في طبقة التابعين، يروي عن ابن عمر وعن أبي هريرة وعن ابن عباس وعن غيرهم من الصحابة ﭫ، وهو من الفقهاء السبعة على قول.

فقد يكون القصد فيه فوائد ونظر شرعي.

بعد هذه الخيبة آوى إلى مغارة بسفح جبل ريثما يلتئم جرحه، ويستعيد قواه، وذاع أنه توفي، ولكنه كان يسعى سرا في جمع الجنود، وبعد استراحته ظهر لأهل مصيليا، فسرتهم رؤيته وابتهجوا بوجوده، فانجدوه. وبعد قليل جمع (٦٠٠٠) من المشاة و (٤١٠٠) من الفرسان[٢٢].

ولم يكن صيفاقس بغافل عنه فجمع جموعه الكثيرة وقسمها جيشين أحدهما برئاسته والآخر بقيادة ابنه فرمينة، وكان مصينيسا بالجبال التي بين قرطة وهبون، فقصده صيفاقس، واصطدمت الجيوش وحمي وطيس الحرب، وأسفرت عن نجاح صيفاقس وهزيمة مصينيسا، ففر إلى بلاد السرت الاصغر (قابس)[٢٣].

إذ ذاك استقل صيفاقس بملك مصيليا ومصيصيليا بعدما كان استقل بهما غولة، وهكذا المدنيا إقبال وإدبار[٢٤].

اتسع نطاق مملكة صيفاقس فاتخذ قرطة عاصمته سنة (٢٠٤) وبينما هو متمتع بملكه العريض ومصينيسا شريد في الجبال والفيافي إذ نزل سبيون الأفريقي بجموعه في أفريقية، فلاح بذلك بارق الأمل لمصينيسا، وجاء بمن كان في صحبته نجدة لسبيون.

هنالك أرسل صدر بعل بن جسقون إلى صهره وحليفه صيفاقس فجاءه بستين ألفا مقاتلا ونزل في مركز خاص ولم يختلط بصدر بعل، نشبت الحرب بين القرطاجنيين والرومان، فأظهر سبيون الانهزام مكيدة وخاطب محاربيه في الصلح، وبينما هم يتفاوضون إذا بسبيون دخل بين الجيشين المتحالفين

---

[٢٢] لأنه من القادة الأفذاذ القلة، رجل واحد ينجو من المعركة وبه جروح، ويرمي بنفسه في واد، فنجى في الضفة الأخرى وهرب، وبقي في كهف ومغارة يداوي نفسه بنفسه، ويسترزق حتى قوي ثم عاد إلى جنده، ففرحوا به، فجمع ٦٠٠٠، و ٤١٠٠.

[٢٣] بتونس.

[٢٤] تقبل على فلان وتدبر على آخر، وتدبر على دولة وتقبل على أخرى، تطلع شمس على دولة، وتغيب على أخرى، وهكذا دواليك. ولا يبقى إلا ماكان لله ﷻ، فما كان لله دام واتصل، وما كان لغير الله انقطع وانفصل، الواجب على من يسوس الدول أن يكون على دراية بالتاريخ، ولابد من العناية بأهل التاريخ، المؤرخون يعرفون الحوادث، ويعرفون كيف تضبط الحوادث بالزمان والمكان، ويفيدون كثيرا، الواجب تقديمهم لمعرفة العبر، وربط النتائج بالمقدمات، واحتمال النتائج من خلال الرؤية لمقدمات معينة.

وحال دون اتصالهما بعضهما ببعض، وفي الليل هجم هو مع قومه على صدر بعل، ومصينيسا في رهطه على صيفاقس، وأحرقا عساكر العدو بالنيران ومن بقي عن النار ألحقته السيوف، فكانت على القرطاجنيين وأنصارهم وقيعة كبرى وذلك سنة (٢٠٣)[٢٥].

شجع هذا الانتصار سبيون على فتح قرطاجنة، ولكن لم يرد أن يورط نفسه فيه قبل استئصال أنصارها من البربر، فجهز جيشا لحرب صيفاقس بقيادة مصينيسا، فالتقى الملكان البربريان بجموعهما، فكبا بصيفاقص جواده في المعركة[٢٦] فأخذه مصينيسا أسيرا، وذهب به إلى قرطة واحتال لدخولها فدخلها. وأتى صفو نيسب وأراد التزوج بها، فلم يرق ذلك لسبيون خشية أن تستميله عنه إلى قومها، ولكنها أنهت الخلاف بينهما بقتل نفسها!

وبعث بصيفاقس إلى رومة، ومات بها سجينا سنة (٢٠١) وهكذا ختمت سعادته بالسيادة وبسطته في السلطة، فمات سجينا بعيدا عن الأهل والولد، وذلك مآل سياسته في منافسته لابن وطنه، واستعانته عليه بالرومان أولا، ويسرني-وأيم الله- أن تكون هذه عاقبة كل من سعى في جلب الأجنبي إلى وطنه ليتقوى به على منافسه من أبناء جنسه[٢٧].

---

[٢٥] لا عهد ولا أمان ولا ميثاق.

[٢٦] يعني تردى منه.

[٢٧] مبارك الميلي رَحِمَهُ اللَّهُ يظهر أنه كان مؤرخا حقا وحقيقة وناقدا، هذه نهاية الكثير ممن يجلب الأجنبي على أهل بلده، ينتهي به أسيرا في السجن، بل وقد يموت بعيدا عن الأهل والولد، هكذا يقول رَحِمَهُ اللَّهُ .

[٨ - فرمينة (٢٠١ - ١٥٨)[٢٨]]

فرمينة هو ابن صيفاقس، قسمت رومة مملكة والده بينه وبين مصينيسا، وأعطته هو مصيصيليا مملكة والده الأصلية.

فرمينة ابن عدو الرومان ووارثه في أحقاده وضغائنه، ومع ذلك يعطونه مصيصيليا ولا يزيدونها لمصينيسا صديقهم ونصيرهم، قد يكون هذا شيئا عجابا، ولكن لا عجب مع السياسة[٢٩]، ولا صداقة ولا عداوة فيها، لو بسط مصينيسا نفوذه على مصيليا ومصيصيليا لكان ذلك مما يضر بنفوذ الرومان ويضعف من آمالهم في أفريقية، وليس في وجود أميرين بربريين ما يخشى منه ذلك، لأنهما إذا لم يكونا جميعا تحت نفوذهم فلا أقل من واحد يخلص لهم طمعا في الانتقام من الآخر[٣٠].

ولم أعثر على ما ينير لي حياة هذا الملك وما قام به أيام ملكه من الأعمال ولا عثرت على نهاية ملكه سوى أن بعض المؤرخين ذكر أن مصينيسا استقل بمصيليا ومصيصيليا سنة (١٥٨) فيظهر أن تلك السنة هي التي انقضى فيها ملك فرمينة إذ لا يعرف بعده ملك على مصيصيليا قبل مصينيسا.

---

[٢٨] هذا من الملوك.

[٢٩] وهذه قاعدة (**لا عجب مع السياسة، ولا صداقة ولا عداوة فيها**) لكن سياسة الخداع والمكر.

[٣٠] جعلت على أرض البربر اثنان، أعطت لهذا وذاك، لأن هذا ابن أكبر أعدائها، وقد ورث العداوة والبغضاء، هل تعلم ولكن أعطته! لأنه إذا أعطت كل أرض البربر لواحد مصينيسا فسيطمع، وهي لا تقوى عليه، فأعطت لهذا وذاك، هذا هو التاريخ، وهكذا فعلت دول أوربا مع دول العرب ودول الإسلام جزّؤوها أجزاء، فرنسا وانجلترا هؤلاء يتكلمون عن الإنسانية والحقوق، يتكلمون عن حق المرأة، وهم أكلوا شعوبا، الحلف الأطلسي قضى على إفريقيا كلها، فرنسا تقول آخذ هذه الجهة، وانجلترا تقول آخذ هذه الجهة، ثم هذا لي وهذا لك، أكلوا قارة بأكملها، ثم يأتون الآن ويتكلمون عن الحقوق! حقوق الإنسان، الأمم المتحدة لحفظ الحقوق، ونحن نتبعهم، قالوا: اليوم العالمي للطفل، قلنا: نعم ...الخ لو يكتشفون مكان الدجال حيث هو مربوط يصلون إليه لعلهم يأخذون منه شيئا، لم يكتشفوه بعد، الدجال موجود الآن، قاله النبي ﷺ وفي جزيرة مكبلا مربوطا مسلسلا قد رآه الصحابة كما في حديث الجساسة، حديث أبي رقية تميم بن أوس الداري رضي الله عنه، وهذا يدلك على أن الناس لم يكتشفوا كل الأرض، لا يعرفونها كلها.
فهؤلاء أخذوا كلّ ما على وجه الأرض، ثم يقولون: الحقوق! والأمن! لهذا خذها قاعدة: لا تتعجب مع السياسة ولا صداقة ولا عداوة فيها.

وهكذا بعدما عثر جد صيفاقس بعثار جواده وأخذ منه الدهر ما كان من طريف عزه وتلاده[31] لم يكن لخلفه صيت[32] ولا سمع له حسيس أو صوت.

[31] الطريف والتلاد أي حاضره وماضيه

[32] سماع ودوي. قُضي عليه.

[٩ - مصينيسا (٢٠١ - ١٤٩)]

مصينيسا بن غولة بن نارفاس رُبّي بقرطاجنة وكان سلفه حليفا لدولتها، فخاض مع القرطاجنيين حروبهم مع الرومان بالأندلس.

وقائد الرومان بالأندلس سبيون الأفريقي، وقد شاهد ما لمصينيسيا من القدرة الحربية، فصار يخاطبه في ولاء رومة، واتفق أن وقع مصيفا ابن أخي مصينيسا أسيرا بيد سبيون سنة (٢٠٧) فسرحه تقربا من عمه[٣٣]. كل هذا ومصينيسا محافظ على ولائه لقرطاجنة[٣٤].

وفي سنة (٢٠٦) توفي غولة وأعقبته ثورة مزوطيل، فلم تحافظ قرطاجنة على أمواله ومملكته، وذلك استخفافا بمصينيسا الذي لولا اشتغاله بخدمتها لم يقع ما وقع بمملكته، فغضب لذلك واضطر لمحالفة الرومان.

رجع مصينيسا من الأندلس ومر بموريتانيا وطلب من ملكها بوكار شرذمة من الرجال لحمايته في طريقه. فأمده مصانعة، وأغذ السير حتى دخل وطنه، فهرع إليه أنصاره.

وبدخوله وطنه دخل في حرب قريبه مزوطيل والملك الصوري لكومسيس[٣٥]، فكان النصر حليفه وفر ابن عمه لكومسيس إلى صيفاقس فأمده وأعاد الحرب ثانية، فعادت عليه الهزيمة، وبعد أن رأى مصينيسا عجز ابن عمه عن الحرب رق له وقربه وأشركه في الحكم، فجمع بذلك شمل أسرته وأعرب عن دهائه وحكمته.

لم يكن صيفاقس ولا القرطاجنيون ليرضوا بوجود مصينيسا على رأس حكومة مصيليا، ولم يجدوا سبيلا لاخذه من ناحية التفرقة والمشاغبة عليه برجل من عشيرته، لأنه سد هذا الثلم بالتساهل مع

---

[٣٣] تسريح الجند وإطلاق سراحهم قد يكون فيه مقاصد.

[٣٤] سبيون الإفريقي الروماني أسر ابن أخ ماصينيسا، فتركه يتقرب إلى عمه، وكان عمه مع القرطاجنيين، يعني ضد الرومان.

[٣٥] الكلام حول هذا سبق.

ابن عمه. فرأوا أن يبادروا اليه قبل استفحال أمره. فجمع له صيفاقس الجموع وحاربه مرارا حتى أخرجه من مصيليا والتجأ إلى السرت الأصغر.

أخرج صيفاقس مصينيسا من عاصمته كما أخرجه هو قبل ذلك بنحو ثماني سنوات، واشتغل بالسرت في طائفة من أصحابه بشن الغارات في تلك الجهات الى أن جاء سبيون الى أفريقية فانضم له وحارب معه حتى سقط صيفاقس في يده وعاد منصورا ودخل قرطة عاصمة سلفه، واعترف له الرومانا بالسيادة على مصيليا، ومنحت مصيصيليا لفرمينة، وفي سنة (١٥٨) استقل بملك مصيليا ومصيصيليا كما كان والده أستقل بهما قبل.

اتسحت من ذلك الحين مملكته وصارت تشمل ما بين طرابلس ومراكش خلا ما كان من التراب النونسي تحت قرطاجنة، وبقي على محالفته لرومة، فكان يمينها في حروبها خلف البحار بالرجال والأفيال[٣٦] والحبوب، يرسلها مع أبنائه ليتعرفوا إلى الرومان ويقفوا على طبائعهم في وطنهم وسياستهم في عاصمتهم. وكان شيوخ رومة يجازونه على اعاناته المادية بهدايا شرفية من تيجان ذهبية وقضبان عاجية وكراسي عاجية، وعلائل مطرزة بالذهب وحلل.

وكما كان يعينها تلك الإعانات كان يعترف بسيادتها ويقول: " إن رومة هي المملكة الحقيقية، وليس لي من مملكتي الا الاستغلال "[٣٧].

وكل هذا منه مصانعة وخداع اقتضته السياسة[٣٨]، أما غايته الحقيقية فهي الاستقلال بملك أفريقية الشمالية والقضاء على القرطاجنيين وطرد المطامع الرومانية، وقد أدرك الرومان منه هذه الغاية فاستخدموه في اضعاف قرطاجنة عدوهتم القوية، ولما فتحوا مقدونيا طلب مصينيسا من شيوخ رومة

---

[٣٦] جمع فيل.

[٣٧] هم يصانعونه وهو يصانعهم، وكل يريد أن يكون على ملكه.

[٣٨] الملعونة. ولهذا لا يأمن معها أحد.

الإذن في زيارة عاصمتهم ليقدم قربانا للالهة "جوبيتر " (كوكب المشتري)[٣٩] فلم يرضوا ذلك الطلب- أظن لأسرار سياسية- وأجابوه بأن بوطنه آلهة فليتقرب لها إن شاء[٤٠].

كانت إعانة مصينيسا لرومة على ضربين: إعانات خارج أفريقية غرضه بها مخادعة رومة بإبداء صداقته لها[٤١]، وإعانات بأفريقية غرضه بها اضعاف قرطاجنة كي يتمكن من تنفيذ برنامجه الاستقلالي. فأعانها في حرب زامة التي كانت للرومان على القرطاجنيين[٤٢]، ووقع بينهما ذلك الصلح الذي اشتمل على المادة السادسة لفائدة مصينيسا، ومن ذلك الحين أخذ في تنفيذ برنامجه،واستعد له بتنظيم الجيش وتنشيط الفلاحة والتجارة، وصار يتقدم نحو قرطاجنة ويختزل من أراضيها، فرفعت شكواها منه إلى رومة، وكررتها مرارا، فكانت رومة تغضي عن الاجابة أحيانا، وتعد على قرطاجنة مساعدة حنبعل لأمير الشام أخرى. وأخيرا وجهت ثلاثة من الخبراء لينظروا في قضية قرطاجنة ومصينيسا، فلم ينصفوها وأبقوا له ما ملك من أراضيها.

---

[٣٩] الإشكال في بعض الناس يجعلون علامات على الأثواب، وعلى الأطعمة، وعلى العصير والمشروبات، يسمونها بأسماء لا ينتبهون لها دون أن يستفسر، مثلا مشروب عليه اسم "جوبيتر" هذا اسم آلهة، لا يجوز هذا، يعني تسمي مناة والعزى وهبل هذا ما يجوز، فينبغي أن ننتبه لا نتساهل في هذه الأمور، وربما يسن أحدهم سنة ضلالة، فيكون عليه وزرها ووزر من عمل بها، فإذا صادفنا مثل هؤلاء إذا كان يمكن أن ننتهي إليهم بنصيحة ننصحهم لعلهم يرجعون وينتهون عن ذلك.

[٤٠] قالوا تريد آلهة؟ عندنا، فتقرب إليها بشيء.

[٤١] الذي تفعله روما هو ما تفعله أمريكا الآن، أمريكا في زمن مضى كانت تقلقها روسيا، فوقفت مع أفغانستان لطرد روسيا، لكن لما طرد الأفغان روسيا كان الأمر هو جاهد في سبيل الله فخشيت أمريكا أن تصير الدولة للمسلمين، هذا الأمر لا يساعدها، فأثاروا البلابل والقلاقل لدولة أفغنستان، لم تستقر دولة أفغانستان مذ أخرج الروس، فيها فتن وقتال ولم يستتب لها أمر أبدا، كما هو الحال أيضا في باكستان، كذلك في الهند، وغيرها من الأراضي، كلها فيها أيادٍ أمريكية وروسية وبريطانية، ويمسحون المدية في المسلمين ويقولون: هؤلاء الإرهاب .. فجروا قنبلة .. الخ، فيه أيد لمسلمين تستغفل، ولكن فيه دوافع من هؤلاء الدول الخبيثة، ومثلما فعلوا في إثارة الحروب قديما بين العراق ودول أخرى، أضعفوا هذه الدول، ولا يزالون يفعلون هذا، والله المستعان.

[٤٢] أظن أن الطلبة يمكنهم أن ينزلوا هذا على الحربين العالميتين الأولى والثانية، وفي أمثالها كثيرة جدا.

وما زال مصينيسا على غاراته في تراب قرطاجنة، وهي تكرر شكواها منه لرومة حتى استمعت لها ووجهت ثلاثة خبراء أيضا، وكانوا يريدون تأديد قرطاجنة لأنهم يخشون من استفحال سلطان مصينيسا والقضاء على مطامعهم في أفريقية إذ كانوا لا تخفى عليهم غايته، وكانوا يظنون قرطاجنة في حالة بؤس وضعف بحيث لا يخشون جانبها، فلما نزلوا بها وشاهدوا حسن حالتها خلاف ما كانوا يظنون رأوا أن إنصافها يعزز قوتها، وذلك مما يدفعها في المستقبل لتجديد الحرب مع دولتهم، فعدلوا عن قصدهم وتركوا ما كان على ما كان[٤٣].

إذ ذاك عزمت قرطاجنة على أن تنصف نفسها بنفسها، فسعت في لم شعثها، وأخرجت من عاصمتها شيعة مصينيسا الذين كانوا يدعون إلى حماية التراب القرطاجني من الرومان بالدخول في طاعته والاستظلال برايته.

غضب مصينيسا من طرد حزبه، وأرسل الى قرطاجنة اثنين من أولاده احتجاجا على ذلك، فقوبلا بكل ازدراء وامتهان، إذ ذاك أرسل ولده غولوسة إلى رومة مخبرا لدولتها بما صنعت قرطاحنة، فأرسلت رومة اليها تهددها بالحرب ان هي نقضت اليوم ما أبرمته بالأمس.

لم تحفل قرطاجنة بهذا التهديد، ولم يترقب مصينيسا ما يكون من رومة، فهجم على الحدود، وخرج إليه صدر بعل بخمسة وعشرين ألفا من المشاة وأربعة آلاف فارس، فاقتتل الفريقان، وبرق لصدر بعل بارق الانتصار أولا، ثم استحر القتال، ولم يتبين غالب من مغلوب، فأراد صدر بعل أن يخاطب– وهو قوي– عدوه في الصلح، فأجابه مصينيسا بطلب رد الأسرى، فامتنع من ذلك، وعاد الفريقان للقتال، فانجلت المعارك عن هزيمة صدر بعل، فطلب الصلح من جديد. وتم على الصفة الآتية:

١ – رد الأسرى من غير فداء.

٢ – إعادة المنفيين من حزبه لقرطاجنة.

---

[٤٣] مثلما تفعل الأمم المتحدة الآن في أراضي المسلمين، لم يروا القتل الموجود في سوريا والعراق، وما كان في اليمن ..الخ، الأمم المتحدة لم تر هذا، حتى لا تقوى دولة مسلمة لها شوكة فتهدد القضية اليهودية، لابد كل ما حول اليهود يكون في ضعف، حتى تتم لهم الصفقة وهي فلسطين.

فإذن رومة لم تنصف قرطاجنة، فإذا أنصفتها تقوّت، كذلك هؤلاء.

٣ - غرامة حربية مقدارها خمسمائة حمل من الفضة في مدة خمسين سنة.

٤ - وضع السلاح.

عاد القرطاجنيون بعد ذلك إلى عاصمتهم، وبينما هم سائرون إذ هجم عليهم غولوسة، ففتك بهم فتكا ذريعا، وذلك سنة (١٥٠)، بلغ خبر هذه الحرب إلى رومة، فادعت على قرطاجنة أما لم تحترم مواد الصلح الواقع بعد حرب زامة، حيث تمهدت إذ ذاك أن لا تحارب مصينيسا، ووجدت بذلك وجها لفتح حرب عليها، تلك الحرب التي انتهت بتدمير قرطاجنة وذوبان القرطاجنيين في غيرهم.

لزم مصينيسا في هذه الحرب البونيقية الأخيرة الحياد، فلم يعن الرومان، وهو الذي كان يعينهم في حروبهم خلف البحار، ذلك أنه كان يأمل أن يكون هو المالك لقرطاجنة تتميما لبرنامجه في الاستقلال بشمال أفريقية، فان لم يحصل ذلك عاجلا فجوار قرطاجنة السلمية الضعيفة خير له ولجنسه من جوار الرومان الحربيين الأقوياء.

في سنة (١٤٩) أحس مصينيسا بدنو أجله، فأرسل إلى سبيون الاميلي - الذي سيكون فاتح قرطاجنة- ليوصيه على أولاده، فتوفي قبل وصوله.

كان مصينيسا ملكا عظيما ذا سياسة ودهاء وادارة ونظام وعناية بالفلاحة والتجارة، صبورا على الشدائد ثابت العزيمة، خاض غمرات الأهوال ولجج الخطوب بقوة جنان ورباطة جأش[٤٤]، حتى تغلب على أعدائه وأورث بنيه ملكا ثابتا ونفوذا عريضا، كان لا يفرط في حظه من الملاذ أن ابتسم له الدهر، ولكن مع يقظة وحذر، فلا يغفل عن أحوال مملكته خوفا من تدبير ثورة، وكان له أسطول وجنود منظمة وسكة مطبوعة باسمه[٤٥]، وتلاث آية الاستقلال، إذ لو كان تحت الرومان لكانت السكة باسمهم.

تعلم الفينيقية أيام كان بقرطاجنة في صباه، فكان ولوعا بها، واتخذها لغته الرسمية ونشرها في مملكته، ومع ذلك لم يكن أيام ملكه ميالا إلى الفينيقيين ولا متساهلا معهم في استقلاله. بل كان يراهم شامة سوداء في أديم مملكته، فلذلك حاربهم وطمع فيما تحت تصرفهم.

---

[٤٤] هي حسن التصرف عند حدوث المفاجأة

[٤٥] أي المال.

وهكذا فليكن حب الجنس[٤٦]، فلا يستبدل الحر بجنسه جنسا تعلم لغته وآدابه، وإنما عليه أن ينشر ما راق له من آداب تلك اللغة بين قومه مع المحافظة على جنسيته[٤٧].

كان هذا الملك حلو الفكاهة رقيق القلب مع الصبيان مر الجد شديدا على من يمس استقلاله، متقشفا في نفسه متأنفا في مظاهر ملكه، فقد اتخذ بدار المملكة الخدم والحشم والخيل، ليبهر العامة حتى لا تطمع في خلع طاعته.

وكان قوي البنية: ولد له وهو في سن (٨٦) وتولى رئاسة الجند والحرب وهو في سن (٨٨) ومات بعد ما جاوز المائة. وقيل بلغ من العمر (٨٩)، وعلى رواية انه حارب صيفاقس سنة (٢١٢) وعمره آنذاك سبع عشرة سنة فتكون ولادته سنة (٢٢٨) ويكون عمره (٧٩) فقط.

واختلف في سنة ولايته أيضا: فقيل سنة (٢٠١) وقيل سنة (٢٠٧). والظاهر ان صاحب الرواية الثانية اعتمد بما كان من ولايته قبل سقوط صيفاقس، ولكن من المتفق عليه بين صاحبي الروايتين أن مصينيسا لم يرجع من الأندلس إلا سنة (٢٠٦)، وهي السنة التي جلس فيها على عرش قرطة حتى شرده صيفاقس.

والخلاصة أن جمهور المؤرخين اتفقوا على مدحه ووصفه بالعظمة واستحقاقه للملك، قال بيروني عن فرنال: " إن مصينيسا لم يعن الرومان إلا بقصد إسقاط قرطاجنة عدوته القريبة، ولو قدر له أن يعيش أكثر مما عاش خمسين سنة لحارب الرومان أيضا مثل ما فعل "يوغووطة"، وبالخروب[٤٨] قبر أحد ملوك

---

[٤٦] الجنس البشري، وهذه السلالة، وهذا النسب ..الخ

[٤٧] هذا كلام طيب وخلاصة يستفيدها الإمام مبارك الميلي، يمكن أن تجمعوا لنا هذه الفوائد، من يتابع معنا ونحن نعلق، كم من مرة يذكر مبارك الميلي فائدة، أو أمرا نقول هو ممن يستفاد من حيث الناحية التاريخية ونحو ذلك، فيمكن أن تُجمع في فوائد.

(مع المحافظة على جنسيته) لا يتخلى عن جنسيته.

[٤٨] قسنطينة.

نوميديا، ويظنه مؤرخو الإفرنج لهذا العهد أنه قبر مصينيسا، حدثني بذلك مرسي أحد المؤرخين وأساتذة الكلية بمدينة الجزائر[٤٩].

---

[٤٩] نكتفي عند هذا الحد، نقف عند اسم الملك العاشر ماسيبسا، ونذكر فائدة من الفوائد نستفيدها وحتى لا نخلي درسنا من فائدة، سواء من آيات القرآن والحديث أو كلام السلف الصالح، قوله تعالى في سورة آل عمران في قول أم مريم {إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ }آل عمران٣٥، قال الشيخ ابن عثيمين هذا يدل على جواز النذر في الأمر المجهول، يجوز أن ينذر في أمر مجهول يعني {إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي} يعني إذا كان الإنسان يمارس التجارة ينذر في أمر مجهول، أو زرع أرضا وغرس ولم تأت الثمار فيقول: إذا أثمرت أرضي بكذا وكذا أخرجت منها كذا وكذا.

وقوله تعالى {فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى}آل عمران٣٦، يستفاد منه أنه لا يستوي الذكور والإناث، لا في الطبيعة ولا في الأخلاق، ولا في المعاملة، بل ولا في الأحكام في بعض الأحيان.

قالت {وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ} هذا يدل على جواز التسمية في أول يوم الولادة، ويجوز التسمية في اليوم السابع كما جاء في الحديث (كل مولود مرتهن بعقيقته تذبح عنه يوم سابعه ويسمى ويختن) [أخرجه أبو داود (٢٨٣٨)، والنسائي (٤٢٢٠)، وابن ماجه (٣١٦٥)، وأحمد ٢٠٨٨] فيجوز التسمية في اليوم الأول من الولادة كما سمى النبي ﷺ ابنه إبراهيم يوم ولادته {وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} فيه جواز الدعاء للذرية ولو لم تأت بعد، فيه جواز الدعاء للمعدوم، لأن الذرية لم تكن بعد قد أتت.

وفي هذه الآيات {إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٣٥ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وِإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ٣٦ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَـذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ إنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}آل‌عمران٣٧، هنا تكرر لفظ (إن) أربع مرات، المرات الأولى الثلاث مع فعل ماض، (إني وضعتها، إني سميتها، إني نذرت)، وفي المرة الرابعة (وإني أعيذها بك) جاء الفعل مضارعا، والفائدة في ذلك ديمومة الاستعاذة وتجددها دون انقطاع، بخلاف الأخبار السابقة فقد تحققت وانقطعت، {وِإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} لأن وساوس الشيطان تتجدد، وتأتي مرة بعد أخرى، فناسب الإتيان بفعل المضارع ليفيد التجدد.

كذلك من الفوائد أن لا يسأل الإنسان مطلق الذرية، وإنما يقيّد قال زكرياء {هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء}آل عمران٣٨، يسأل الذرية الطيبة، هي التي تنفعه، قال تعالى {فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ} هنا قال الشيخ: فيه جواز تكليم المصلي، إلا أن المكلَّم في صلاته لا يخاطب الآخر، وإنما يشير إليه إشارة، وهذا جاء في الحديث ما يدل عليه.

وقوله تعالى {قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً} قال الشيخ: فيه أنه ينبغي على الإنسان إذا انقطع عن الناس أن يشغل وقته بذكر الله ﷻ كما قال تعالى { وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً}.

أكتفي بهذا أسأل الله أن ينفعنا، وأن يوفقنا لخير ما يحب ويرضاه، والحمد لله رب العالمين.